

التصوف

اعلم نَوَّرَ اللهُ تعالى قلبي وقلبك، وأكمل فيه حبي وحبك أن التصوف نتيجة العقل وثمره العلم، وفائدة العمر ولباب الدين، وروح الإسلام، لأنه الاشتغال بعبادة الله تعالى، والتعلق بمحضته العليّة، وهو الغاية الكبرى من وجود الأكوان، وخلق الإنسن والجانّ. والمقصود في الحقيقة من بعثته صلى الله عليه وسلم، وبعثة سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ^(١)].

وقال عز وجل: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ^(٢)].

لا يتقاعد عنه إلا ضعيف الإرادة قليل الهممة.. سئل ذو النون المصري عن السفلة من الناس. فقال: هو الذي لا يعرف الطريق ولا يتعرفه، العلم بدونه وسيلة بلا غاية، كما أن الخوض فيه قبل العلم شر جنائية.

ولهذا كان السرى السقطى يقول للجنيد رضي الله تعالى عنهما: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث.. إشارة إلى أن من تصوف بعد العلم بالله تعالى وبالأحكام الشرعية العملية فقد أفلح وأتى البيوت من أبوابها؛ ومن تصوف قبل تحصيل العلم فقد خاطر بنفسه، وتكذب طريق السداد والفلاح، وفي حديث معاذ رضي الله تعالى عنه الدال على شرف العلم وطلب تعلمه، قال ﷺ: "والعلم إمام العمل والعمل تابعه..".

(١) سورة المذاريات الآية: ٥٧

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٥

ومن تراجم البخاري في صحيحه: العلم قبل العمل لقوله تعالى: [فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ^(١)]. فبدأ بالعلم قبل العمل.

ومن المأثور عن بعض السلف ونسبه الشيخ زروق في قواعده للإمام مالك رضي الله تعالى عنه: "من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد ترندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

ما هو التصوف؟

أهل كل علم هم أدرى الناس به، وأصحاب الحق الطبيعي في بيان ماهيته وتصوير حقيقته.. وقد قال الإمام مالك: "لكل علم رجال، وإنما يؤخذ كل علم عن أهله".

فلننظر إذًا إلى كلام الصوفية بيان حقيقة التصوف، ولنضرب صحنًا عن كل ما لا يوافق من كلام غيرهم، سواء كان قائله غريباً أم شرفياً.

ومراجعة كلام الصوفية في هذا المقام، نجد أن للتصوف عندهم إطلاقين:

الإطلاق الأول: باعتبار كونه علماً من العلوم، ويحد على هذا بأنه: علم يعرف به أحوال النفوس وكيفية رياضتها، وطرق علاجها، ومنشأ أمراضها، وتطوراتها..

وهو معنى قول العارف الدردير رضي الله تعالى عنه في شرح "خريدته" إنه علم بأصول يعرف به صلاح القلب وسائر الحواس.

وهذا العلم في الحقيقة، هو الحكمة التي يقول الله تعالى فيها: [وَمَنْ يُؤْتَ

(١) سورة محمد عليه الصلاة والسلام الآية: ١٩

الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا^(١).. وهو الفقه في الدين الذي يقول فيه رسول الله ﷺ كما في الصحيح "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين". وكلما أخلص العبد في عبادة ربه، ومجاهدة نفسه تفجرت ينابيع هذا العلم من قلبه.

والإطلاق الثاني للتصوف باعتبار كونه عملاً ورياضة للنفس، ويحد على هذا- كما في شرح الخريدة- بأنه: الأخذ بالأحوط من المأمورات، واجتناب المنهيات والاقتصار على الضروري من المباحات.

وقيل: هو الخروج عن كل خلق دني، والدخول في كل خلق سني.

وقيل: الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهراً أو باطناً.

وقيل: صفاء المعاملة مع الله تعالى:

وقيل: اشتغال العبد بما هو أولى في الوقت.

وقال الغزالي: هو- تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه. أي اعتقاد أنه لا ينفع ولا يضر.

وقيل: كمال الإنسان بالإسلام والإيمان والإحسان.

والأقوال الماثورة في التصوف كثيرة جداً. حتى قيل: إنها تبلغ زهاء الألفين، ومرجعها كلها إلى الإخلاص في عبادة الله، والإستعانة به دون سواه..

وهو المذكور في مفتاح الفرقان المنصوص عليه في أم القرآن: [إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ^(٢)].

فإن جميع ما ذكره الصوفية وقرروه، وندبوا إليه أنفسهم وأتباعهم يدور

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٩

(٢) سورة الفاتحة الآية: ٥

على هذين الأصلين، ويتفرع منهما.

وقال شيخنا العارف الدومي رضي الله تعالى عنه: الطريق هو العمل بالعلم.. وقال مرة: هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين.

وقال العارف الدرديري رضي الله تعالى عنه في "تحفة الإخوان" إن طريق القوم هو تقوى الله تعالى التي أمرنا بها في كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ، ورتب عليها سعادة الدارين، وحصول المعارف والأسرار الإلهية، والتكفل بالرزق من غير مشقة، وحكم سبحانه أن كل من تمسك بها أكثر من غيره كان عند الله أكرم.

قال الله تعالى: [وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ^(١)].

وقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ^(٢)].

وقال: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ^(٣)].

وقال: [إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ^(٤)]. وانظر إلى قوله تعالى: [أَتْقَاكُمْ]، ولم يقل أعلمكم، ولا أنسبكم، ولا أصحابكم، ولا أجمعكم. أي أكثركم صحبة للأخيار وجمعاً للمال.

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨٢

(٢) سورة الحديد الآية: ٢٩

(٣) سورة الطلاق الآية: ٣٢

(٤) سورة الحجرات الآية: ١٣

طريقة قويمه

فهل يرتاب منصف في أن هذه الطريقة الصوفية طريقة قويمه، وخطة راشده حكيمة.

ولله در الإمام ابن السبكي، حيث قال في خاتمة كتابه (جمع الجوامع) الذي طبقت شهرته الآفاق: ونعتقد أن طريق الجنيد وصحبه طريق مقوم.

إي والله طريق مقوم. موزون بميزان العقل والشرع، يرمي إلى تخلص الأعمال من الحظوظ والأغراض الفاسدة، ويهدف إلى تكييف الحياة الإنسانية تكييفاً دينياً صالحاً. سداه وحمته تقوى الله تعالى ومراقبته وذكره باللسان والحنان. وغايته حضور القلب معه عز وجل في كل حال.. وليس من شرطه ولا المقصود منه إمانة الصفات البشرية وقطع حظوظ النفس بالكلية. كما توهم بعض القاصرين حتى زعموا أن التصوف مذهب خيالي لا يمكن تطبيقه عملياً، ولا يتأتى تحقيقه واقعياً.. كلا.. بل التصوف مذهب واقعي معقول.. لا يصادم الفطرة الإنسانية، ولا يتحدى الطبيعة البشرية، ولا يتنافى مع سنن الحياة وقواعد الاجتماع، ولا يشترط فيه، ولا يقصد منه إلا التحرر من سلطان النفس الأمارة بالسوء، والتخلص من طغيان الشهوة والغضب. وهذه هي الحرية الحقيقية، والكمال الإنساني، المحمود عقلاً وشرعاً.

وهذا معنى ما قاله أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: ليس التصوف بالرهبانية، ولا بأكل النخالة والشعير، ولكن بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية. كما قال تعالى: [وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَيَاتِنًا يُوقِنُونَ^(١)].. ومعنى قوله أيضاً: التصوف تدريب النفس على العبودية،

(١) سورة المسجدة الآية: ٢٤

وردها لأحكام الربوبية.

وقال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم). لا يلزم من وجود
الخصوصية- الولاية- نحو صفات البشرية.

وسئل أبو محمد سهل بن عبدالله التستري وهو من كبار مشايخ الصوفية
عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع
به فيجد حلاوته. ! فقال: الحلاوة طبع البشرية، ولا بد من الطبع وليس له حيلة
إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى أن ينسيه ذلك، ويشغله بغيره من ذكره
وطاعته.. قال: وإن غفل عن الإنكار طرفة عين فإني أخاف عليه أن لا يسلم،
وتعمل الحلاوة في قلبه، ولكن مع وجود الحلاوة يلزم قلبه الإنكار ويجزن فإنه لا
يضره.. فتأمل قوله ﷺ الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع.

ومن النفائس قول بعض المحققين: الولي يكون محفوظاً عن النظر لنفسه فلا
يدخله عجب، ويكون مسلوباً من الخلق- يعني من النظر إليهم بحظ- فلا
يفتنونه ويكون محفوظاً من آفات البشرية وإن كان طبع البشرية قائماً معه باقياً
فيه فلا يستحلي حظاً من حظوظ البشرية إستحلاء يفتنه عن دينه، واستحلاء
الطبع قائم معه باق.

فما أحكم الصوفية، وما أعرفهم بأحوال النفوس ودخائلها.

همُّ الرجال وعيب أن يقال لمن لم يتصف بمعاني وصفهم رجل

متى نشأ التصوف؟

أما التصوف العملي الذي هو عبارة عن مجاهدة النفس، والاشتغال
بالعمل الصالح، والتعلق بالله عز وجل مع الزهد في الدنيا، وعدم الاعتزاز
بمظاهرها الخلابة فلا خفاء في أنه طلع مع الإسلام في أفق واحد، ونشأ معه في

الوقت الذي نشأ فيه، يدلك على هذا ما ثبت مستفيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، من اجتهادهم في عبادة الله تعالى، وتفانيهم في محبته، وإنابتهم إلى دار الخلود، ومجافاتهم عن دار الغرور. مع ما كانوا عليه من الأحوال الشريفة، والأخلاق الفاضلة، والآداب الكريمة.

وهاكم الأدلة القاطعة الدالة على ذلك، قال الله تعالى: [وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ^(١)].

وقال عز شأنه: [رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ^(٢)].

وقال تعالى: [مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ^(٣)] إلى غير ذلك من الآيات.

وأخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: "أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً". وأخرجنا أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "ما شبع آل محمد صلى الله عليهم وسلم من طعام ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض".

وقوله صلى الله عليه وسلم: حتى قبض، فيه رد على من يزعم أن هذا وقع منه صلى الله عليه وسلم للضرورة وقلة الأوقات، إذ لا يخفى أنه في أخريات حياته عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الكهف الآية: ٢٨

(٢) سورة النور الآية: ٣٧

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٩

قد فتحت عليه الفتح، وكثرت لديه الغنائم.

وأخرج أحمد وابن حبان في صحيحه. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر رضي الله عنه، وهو على حصير قد أنر في جنبه فقال يا رسول الله: لو اتخذت فراشاً أو ثوباً - ألبين - من هذا فقال: "مالي وللدنيا، ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب، سار في يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة، ثم راح وتركها".

وعن القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: غدوت يوماً، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة رضي الله عنها - لأنها عمته وهي التي ربته في حجرها بعد موت أبيه - أسلم عليها، فغدوت يوماً عليها، فإذا هي تصلي صلاة الضحى، وهي تقرأ قوله تعالى: [فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ^(١)]، وتبكي وتدعو. فلما رأيت ذلك، ذهبت إلى السوق فقلت: أفرغ من حاجتي. ثم أرجع، ففرغت من حاجتي، ورجعت وهي كما هي، تردد الآية وتبكي وتدعو.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لولا ثلاث ما أحببت البقاء يوماً واحداً، الظمأ لله بالهواجر - يعني الصوم - والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام، كما ينتقي أطيب التمر.

وعن زيد بن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء أن يصلي، حتى إذا كان آخر الليل، أيقظ أهله للصلاة.

ووصف الحسن البصري أصحاب رسول الله ﷺ فقال: والله لقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي يمشون عليه، ما يبألون أشرفت الدنيا أم غربت، ذهبت إلى ذا أم ذهبت إلى ذا.

(١) سورة الطور الآية: ٢٧

هذا حال رسول الله ﷺ، وحال أصحابه الكرام. ومنه يعلم أن التصوف العملي غير حادث في الملة الإسلامية وإنما هو منوط بنشأة الإسلام الأولى. بل الواقع أن التصوف بهذا المعنى موجود في كل ملة، وجاء به الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إذ هم جميعاً لم يبعثوا إلا لتزكية الطباع وتهذيب النفوس وصرافها عن شهوات الدنيا الفانية.

وأما التصوف باعتباره علماً فإذا نظرنا إليه من حيث أصله ومادته الأساسية نجد أن تاريخه مرتبط بتاريخ الإسلام أيضاً. للقطع بأن مداره - كما سبق - على الكتاب والسنة فإنه لا يمكن أن يكون خارجاً عنهما بأي اعتبار.

قال الإمام ابن عبد السلام في "قواعد الأحكام" ليست الحقيقة وهي علم التصوف - خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال. والعزوم والنيات.. وعن الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.. وقال أيضاً: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يقتدى به في هذا الأمر.

وأما إذا نظرنا إليه من حيث ما وقع فيه من الكلام عن الخواطر والأذواق والبحث عن أحوال النفوس؛ وبيان شهواتها، ودسائسها الخفية، ونحو ذلك.. فشأنه شأن بقية العلوم الأخرى كالفقه وأصوله، والتوحيد، والمعاني.. التي لم تقع العناية بالنظر فيها والبحث في مسائلها وفروعها وتقرير المصطلحات الخاصة بها إلا بعد عصره ﷺ.

والمعروف أن أول من تكلم في علم التصوف بهذا الاعتبار الحسن البصري رحمه الله. قال أبو سعيد ابن الأعرابي لم يبلغنا أن أحداً تكلم في هذه المذاهب - يعني أحوال النفوس - ودعا إليها وزاد في بيانها وترتيبها، وصفات أهلها مثل الحسن البصري. وفي (الفوت) لأبي طالب المكي: وكان الحسن أول من أُنهج سبيل هذا

العلم وفتق الألسنة به، ونطق بمعانيه، وأظهر أنواره وكشف قناعه، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه، فقيل له يا أبا سعيد، إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد غيرك فمن أخذت هذا؟ فقال: من حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه.. وروي أنه لما دخل الإمام علي رضي الله تعالى عنه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول لا يقص في مسجدنا، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم في هذا العلم فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجـ ذكره في (القوت) أيضاً- وهذا صريح في أن الحسن كان يتكلم في هذا العلم بالمسجد، مع أن صاحب (القوت) نفسه ذكر في موضع آخر أن الحسن كان حين يتكلم في هذا العلم يخلو مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد فيحمل على أنه كان أو لا يتكلم فيه بالمسجد ثم بدا له أخيراً أن يخلو به مع الخاصة من أتباعه.. وعلى كل حال فالعناية بعلم التصوف لم تظهر بشكل واضح إلا في القرن الثالث من الهجرة النبوية حيث انتصب الإمام أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي والإمام أبو القاسم الجنيد رضي الله عنهما لتشييده، ونصرة مبادئه، والإستشهاد على ذلك بنصوص الكتاب والسنة.. وقد اقتفى أثرهما في ذلك كل من جاء بعدهما من أساطين هذا العلم. كل يجتهد على قدر وسعه؛ ومبلغ علمه في نصرته وتمهيد قواعده وبيان أصوله، وآدابه بطريق المذاكرة والمدارسة أو بطريق الكتابة والتأليف إلى زمننا هذا. كما هو الشأن في العلوم والفنون الأخرى.

الفرق بين الصوفي وغيره

فإن قلت: ما الفرق بين الصوفية وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين وسائر طوائف المسلمين؟.. قلت: أما في الأصل، وبالنظر لعهد السلف الصالح فلم يكن هناك صوفية وغير صوفية. حيث كان الكل على

طريق الهداية والحق، مقبلين على الله تعالى، مشتغلين بعبادته، معرضين عن الدنيا بقلوبهم وبواطنهم، وإن زاولوها بطواهرهم [رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا يُخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ^(١)].

فلما جنح الناس إلى مخالطة الدنيا، وأخذوا يتزحزون عن الهدى النبوي شيئاً فشيئاً، ودب الضعف إلى القلوب، وتسرب الفساد إلى الأعمال - اختص المقبلون على العبادة القائمون على محاسبة أنفسهم، ومراعاة قلوبهم، المحافظون على سنة رسول الله ﷺ والسلف الصالح رضوان الله عليهم بإسم الصوفية.

قيل لعبدالواحد بن زيد: من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على فهم السنة، والعاكفون عليها بقلوبهم، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم.. هم الصوفية.

فخاصة الصوفية وميزتهم مراعاة أنفاسهم مع الله تعالى، وحفظ قلوبهم من طوارق الغفلة، وصرف اهتمامهم لعمل الباطن، وحسن السريرة، وعدم التطلع لملاحظة الخلق.. فمن لم يكن كذلك فأعماله عندهم كاهباء، لا يثبتونها ولا يعولون عليها وأما غيرهم من بقية الطوائف فإنما يعولون على ما ظهر من الأعمال، وغاية جهدهم أن تكون أعمالهم موافقة لظاهر الشرع. فما أنكره الشرع ظاهراً أنكره، وما مدحه مدحوه. ولا اهتمام لهم في الغالب بأمر السرائر وأحوال القلوب.

وهذا معنى قول رويم رضي الله تعالى عنه - وكان من كبار المشايخ - كل الخلق قعدوا على الرسوم، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق. وطالب الخلق

(١) سورة النور الآية: ٣٧

أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقته، ومداومة الصدق يعني أن الناس قد صرفوا همهم وبذلوا جهدهم في مراعاة الظواهر، والمحافظة على رسوم العبادات والمعاملات وأشكالها فقط.

ولكن الصوفية طالبوا أنفسهم - مع المحافظة على ظواهر الأوامر والنواهي - بحقائقها وثمراتها المقصودة منها، ولزوم الصدق مع الله تعالى، والتبري من الحول والقوة في عموم الأوقات.

وفي كتاب "القواعد" لسيدي أحمد زرّوق رضي الله تعالى عنه قال: نظر الصوفي أخص - أي أعلى - من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط الحرج، والصوفي يعتبر ما يحصل الكمال، وأخص من نظر الأصولي - يعني الباحث في علم التوحيد - لأن الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي يعتبر ما يتقوى به اليقين، وأخص من نظر المفسّر وصاحب فقه الحديث لأن كلاً منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتوه، وإلا - يعني وإن لم يثبت ما أثبتته المفسرون وشرح الحديث - فهو باطني خارج عن الشريعة فضلاً عن المتصوفة.

فحظُّ الصوفية من ميراث رسول الله ﷺ أوفر الحظوظ لأنهم اتبعوه في أقواله، فقاموا بما أمرهم به، ووقفوا عما نهاهم عنه. ثم اتبعوه في أحواله، من الجِد والاجتهاد في العبادة، والتقرب إلى الله تعالى بالنوافل، والتخلي عن الحظوظ، ثم اجتهدوا في التأسّي به في أخلاقه من الحلم والصبر، والتوكل، والخشية، والمحبة، والرضا جهد الطاقة إذ لا يمكن أن يلحقه ﷺ في أعماله وأحواله وأخلاقه مخلوق كائناً من كان.

قال في المباحث:

حجة من يرجح الصوفية على سواهم حجة قوية
هم أتبع الناس لخير الناس من سائر الأنام والأناسي
تبعه العالم في الأقوال والعابد الناسك في الأفعال
وفيهما الصوفي في السباق لكنه قد زاد بالأخلاق

هذا هو التصوف الإسلامي الذي نفهمه، ونعتقده، ونتشرف بالانتساب إليه، مع تقصيرنا في التحلي بحلية أهله.

أما ما عليه أهل البطالة والجهالة الآن، وقبل الآن بزمن طويل، من الصخب والصياح، والاحتيال على جمع الحطام الفاني، وأكل أموال الناس بالباطل، مع التهاون في الأوامر الشرعية والآداب الإسلامية فليس من التصوف ولا من الدين في شيء.

ليس التصوف لبس الصوف ترقرعه ولا بكأؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اختباط كأن قد صرت مجنوناً
بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خائفاً لله مكتئباً على ذنوبك طول الدهر محزوناً

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

إن قلت: على الرغم مما حاولت من تيسير أمر التصوف، وتقريب معناه، وجعله مذهباً واقعياً، لا يصادم الفطرة، ولا يتحدى الطبيعة البشرية فإننا نراه مقاماً عزيزاً، ومذهباً صعباً، وطريقاً وعراً، كثير العقبات والمشقات..

لا يقدر على سلوكه إلا بترك كثير من محبوبات النفس ومألوفاتها.. من حب المال والجاه وتوابعهما.. فكيف هان على القوم سلوك هذا الطريق؟

وكيف أمكنهم القيام بمراعاة أنفاسهم، وحفظ قلوبهم من طوارق الغفلة،
وعكوفهم على سنة رسول الله ﷺ؟ وكيف أطاقوا المواظبة على مجاهدة نفوسهم
إلى هذا الحد!!

قلت: أما أنه مقام عزيز وطريق وعمر، فمما لا خفاء فيه. وبهذا صرح
الأشياخ قديماً وحديثاً.. لا ليثبطوا عنه الهمم، ولا ليصرفوا عنه الناس.. بل ليعد
له المرید عدته، ويأخذ له أهفته.

قال عبدالله بن خفيف: قلت لروم! أوصني. فقال: ما هذا الأمر - يعني
التصوف - إلا يبذل الروح. فإن دخلت فيه على هذا، وإلا فلا تشتغل بترهات
الصوفية.

وقال أبو البركات الدردير في أول تحفته: واعلم يا أخي أن طريق القوم
عزيزة لا يهتدى فيها - أي لا يعرفها ولا يثبت فيها - إلا المختار..
ولهذا كان أهل هذا الطريق أقل الناس عدداً. وإن كانوا أعظمهم قدراً،
وأرفعهم محلاً..

وأما كيف هان على القوم سلوكه.. وكيف أمكنهم القيام بمجاهدة
نفوسهم، ومراعاة أنفاسهم.. إلخ، فقد سئل إمام الطائفة أبو القاسم الجنيد مثل
هذا السؤال. قيل له كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى؟ فقال: بتوبة تزيل
الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل، وإهانة
النفوس بقربها من الأجل، وبعدها عن الأمل.. قيل له: فيم يصل العبد إلى هذا؟
فقال: بقلب مفرد، فيه توحيد مجرد.. فجعل القلب المفرد وهو المشغول بالله
دون سواه المحشو بخالص التوحيد وصافي المعرفة هو الذي يبعث الإنسان على
التوبة والخوف والرجاء وقصر الأمل، وهو الذي يهون عليه مشقة الجاهدات

والمكابدات، ويجعله لا يرى صعباً دون مطلوبه بل يستعذب العذاب في نيل مرغوبة.

فيا حبذا الأسقام في جنب طاعتي أوامر أشواقى وعصيان عذالي
وياما ألد الذل في عز وصلكم وإن عز. ما أحلى تقطع أوصالي.

وفي الإحياء: أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى، واليوم الآخر، والجنة والنار. وهذا اليقين يهيج بالضرورة الخوف من النار، والرجاء في الجنة.. والرجاء والخوف يقويان على الصبر، فإن الجنة قد حفت بالمكارة فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء، والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف.. ولذلك قال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار يرجع عن المحرمات. ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام.

والخلاصة: أن النفس الإنسانية خصائصها عجيبة، وآثارها مدهشة، في جوهرها كنوز مكنوزة من المعارف والأسرار، وفي فطرتها طاقات كامنة - علمية وعملية - لا نهاية لها، ومتى غلب عليها شيء من المحبة أو الخوف أو الرجاء شغلها واستولى عليها وهاجها إلى الجد والعمل، وحملها على ركوب الصعاب وتحمل المشاق.

والصوفية قد عرفوا هذا.. وفطنوا له.. وعلموا أن الرياضة والتمارين وكثرة المزاولة للعمل تكسب الإنسان قوة ومهارة، وتجعل الأمور المتكلفة بمثابة الجبلة والطبع.. البدن يتمرن على الحركة والعمل.. والنفس تتمرن على الأخلاق والآداب.. والعقل يتمرن على الغوص في دقائق العلم وغوامض المسائل.

فالإنسان بدنه، ونفسه، وعقله كل ذلك قابل للرياضة والتمرين، ورؤية العباد، وصحبة العارفين أصحاب الأنفاس العالية تحيي الهمم، وتبعث النشاط.

قال بعضهم: كنت إذا اعتزني فترة في العبادة نظرت إلى مُحَمَّد بن واسع- كان من كبار الزاهدين العباد- فعملت على ذلك أسبوعاً.

ومنى علم الله تعالى من العبد الإخلاص في نيته، والصدق في محبته جذبه إليه وشغله بذكره وطاعته حتى يصير له ذلك بمثابة القوت، لا يصبر عنه لحظة.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولن استعاذ بي لأعدته".

ومعنى كنت سمعه الذي يسمع به.. إلخ- شغلت بمحبتني، وذكري، وطاعتي حواسه وجوارحه، فلا تبقى له حاسة ولا جارحة تتصرف إلا لله وبالله تعالى.

وهذا معنى قول الله عز وجل: [أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِتَتَّقُوا^(١)] أي جعلها خالصة لتقواه عز وجل، مؤهلة للقرب من حضرته بمنع ما يشغلها من العلائق، وإزالة ما يقطعها من الشهوات التي هي في الحقيقة أجنبية عنها طارئة عليها.. وذلك لأن القلوب إنما خلقت مستقيمة سليمة من الأمراض عندما التذت بمشتهيات الجسد بواسطة الحواس التي يسبق وجودها في الإنسان، وتظهر آثارها فيه قبل كمال العقل وإشراق نوره، فإذا كمل العقل وتأيد بنور الشرع، وأسعفه الله تعالى بتوفيقه أمكنه أن يقمع هذه الشهوات،

(١) سورة الحجرات الآية: ٣

ويقف بها عند حد الحكمة والشرع.

ثم إن القوم لم يدخلوا في هذا الأمر دفعة واحدة. بل دخلوا فيه بالتدريج وأوغلوا فيه برفق.. عملاً بقول نبيهم الحكيم صلوات الله وسلامه عليه: "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق". وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى".. واحتالوا على النفوس احتيالاً، وجذبوها إلى الكمال شيئاً فشيئاً، حتى استقامت على أمر الله تعالى ونهيه، واطمأنت إلى عبادته وذكره فنالوا بذلك الخير العميم والريح العظيم. ومن جرب عرف، ومن صدق في مجاهدة نفسه رأى منها العجب العجيب.

قال صاحب المباحث:

واحتل على النفس فرب حيله أنفع في النصره من قبيله
والله تعالى المستول أن يُيسر علينا أسباب طاعته، ويفتح لنا أبواب رحمته.
ويجعلنا من عباده الصالحين.

والحمد لله رب العالمين.. وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.